المحاضرة التاسعة النحوية

الاختلاف النحوي بين مدارس النحو 1 (المشرق)

حريّ بنا مرة ثانية و نحن في مستهل هذه المحاضرة أن نشير إلى أن مفردات البرنامج المقترحة قد شابها كثير من الخلل و الاضطراب، خاصة فيما يتعلق بتكرار المواضيع التي سبق و أن بحث فيها و للتذكير فإنّ المحاضرة الرابعة قد حمل عنوانها موضوع (الاختلاف) إذ كان: (مناهج المدارس النحوية العربية القديمة: الاختلاف ، التخريج...). و كنا حينها قد وقفنا عند كثير من مظاهر الاختلاف بين مدارس النحو القديمة... ثم تبرمج المحاضرة التاسعة و يكون موضوعها هذا العنوان: (الاختلاف النحوي بين مدارس النحو 1، (المشرق)). و لأننا ألزمنا أنفسنا بالالتزام الصارم بمفردات البرنامج المقترحة فقد مضينا في البحث في هذه المفردات على ما فيها من تكرار لموضوع (الاختلاف) كما أسلفنا ذكره، محاولين قدر الإمكان تحاميّ كثير من التكرار بالتركيز على الجوانب التطبيقية و تعزيز الآراء بالشواهد والأمثلة و سنعرّج بداية على المعنى اللغوي و المعنى الاصطلاحي لمفهوم: الاختلاف.

المعنى اللغوي: جاء في المصباح المنير: "... و خالفته مخالفة و خلافا، و تخالف القوم و اختلفوا إذا ذهب كل واحد إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر و هو ضد الاتفاق"[166]

إذا فالاختلاف في اللغة هو نقيض الاتفاق.

المعنى الاصطلاحي: وأما في اصطلاح العلوم فقد ورد في (كتاب التعريفات) للشريف الجرجاني:

" الخلاف منازعة تجري بين المتعارضين لتحقيق حق أو لإبطال باطل"[167]

وكما ترى لا يكاد التعريفان اللغوي و الاصطلاحي يختلفان هنا فالأول يشير إلى أن الاختلاف مرده إلى تمذهب فريقين كل بمذهبه، و أما الاصطلاحي فبين أن الخلاف هو نزاع بين فريقين حول أمر معين لإثبات كل فريق الحق لنفسه... و الحال كذلك في النحو لأن كل مدرسة أو كل مذهب يدعي الصواب لرأيه و يدعمه بتعليلات و حجج...

و بعد هذا لابد من التنويه إلى أن مجال الاختلاف النحوي بين المدارس واسع شاسع لا تستوعبه محاضرة واحدة و لكننا سننشد الاختصار و الإشارة حتى نقف عند أهم مظاهر الخلاف بين هذه المدارس. و لعله من المفيد أن نذكر أن ذلك الاختلاف بين تلك المدارس قد تجلت مظاهره في أربعة مجالات و هي:

أ) – اختلاف في التحديدات: (بمعنى أن الاختلاف كان في تعريف الموضوع لا في الموضوع نفسه).

ب) – اختلاف في المصطلح: (بمعنى أن الاختلاف في التسمية العلمية للمفاهيم).

ج) – اختلاف في المنهج: (و هو المتعلق بتباين طرائق الدرس اللغوي في دراسة المواضيع النحوية).

د)- اختلاف في التوجيه النحوي للقراءات القرآنية و الأشعار: (التأويل النحوي).

و عليه فإننا نتتبع مظاهر هذا الاختلاف من خلال هذه المجالات الأربعة المذكورة:

أولا: اختلاف في المصطلح: و منه:

- اشتقاق الاسم:

يرى البصريون أن الاسم مشتق من (السموّ) أي الارتفاع، و يرى الكوفيون أنه مشتق من (الوسم) و معناه العلامة، قال أبو سعيد الأنباري: " ذهب الكوفيون إلى أن الاسم مشتق من الوسم وهو العلامة و ذهب البصريون إلى أنه مشتق من السمو و هو العلو"[168]

ما نستنتجه أن البصريين و الكوفيين يتفقان في لفظ (الاسم) و يختلفان في تحديده و اشتقاقه.

– أصل الاشتقاق أهو الفعل أو المصدر؟

يرى الكوفيون أن الفعل هو أصل الاشتقاق و حجتهم أننا نبدأ بالفعل فنقول: ضرب ضربا و انطلق انطلاقا ...و أما البصريون فيرون أن المصدر أصل الاشتقاق، و من حججهم أن المصدر يحمل معنى الصدارة أي التقدم. قال أبو سعيد الأنباري: " و ذهب الكوفيون إلى أن المصدر مشتق من الفعل و فرع عليه، نحو: ضرب ضربا و قام قياما، و ذهب البصريون إلى أنّ الفعل مشتق من المصدر و فرع عنه.... و قالوا أن المصدر إنما سميّ مصدرا لصدور الفعل عنه"[169]

نسجل هنا اتفاق المدرستين على تسمية كل من الفعل و المصدر لكنهما تختلفان في أيهما أصل عن الآخر.

– اختلاف حول (نعم) و (بئس) أهما فعلان أم اسمان؟

يرى الكوفيون أن نعم و بئس اسمان مبتدآن، بينما يرى البصريون أنهما فعلان ماضيان جامدان، و احتجّ الكوفيون على اسميتهما بدخول حروف الخفض عليهما، و احتج البصريون على فعليتهما بقبولهما تاء التأنيث الساكنة و هي من علامات الأفعال...[170]

ثانيا: اختلاف في المصطلح:

إنّ أهم الاختلاف بين المدرستين تمظهر في المصطلح النحوي و هو كثير نسبيا لأن كل مدرسة كانت ترنو للتميز عن نظيرتها و سنختار مجموعة من المصطلحات المختلف فيها بين المدرستين مع عزونا كل مصطلح إلى مدرسته من خلال هذا الجدول:[171]

المصطلح البصري	ما يقابله في المصطلح الكوفي
الحشو	الصلة
ضمير الفصل	العماد
الإثبات	الإقرار
التوكيد	التشديد
لا النافية للجنس	لا التبرئة
الجامد	الاسم الثابت
ضمير الشأن	المجهول
اسم الفاعل	الفعل الدام
ينصرف و لا ينصرف	يجري و لا يجري
المضارع	المستقبل
النداء	الدعاء

هذا و لقد وقف الدكتور شوقي ضيف عند عينة من الخلاف في المصطلح النحوي نذكر منه مايلي:[172]

المصطلح البصري	المصطلح الكوفي
الضمير	الكناية
المفعول فيه، معه، لأجله، المطلق	أشباه مفاعيل

البدل	الترجمة
الظرف	الصفة و المحل
التمييز	التفسير
حروف النفي	حروف الجحد
لام الابتداء	لام القسم

ثالثا: اختلاف في المنهج:

أولا: السماع أو النقل:

لقد مرّ بنا من قبل اختلاف المدرستين في المنهج و من ذلك اختلافهما في السماع أي (النقل) إذ يتشدد البصريون في جمع اللغة التي يتخذونها شواهد لقواعدهم النحوية و لذلك توغلوا في البادية وسمعوا عن العرب الخلص و وقفوا موقفا حازما من اللغة الشاذة و تعاملوا معها تحت قاعدة: (الشاذ يؤخذ ولا يقاس عليه) بمعنى أنهم لا يرفضون الشاذ رفضا مطلقا و لكنهم لا يتخذونه مرجعا لبناء آرائهم النحوية. و في المقابل نجد الكوفيين قد نقلوا عن أهل الحضر و أهل البادية كما سمعوا عن القبائل التي كانت على تخوم الأعاجم.

ثانيا: القياس:

و إذا تعلق الأمر بالقياس، فإنّ البصريين لا يقيسون إلا على المطّرد من كلام العرب

و نجدهم يتحرّجون كثيرا من القياس على الشاذ بله على غير المسموع. في حين كان الكوفيون يقيسون على الشاذ و على البيت الواحد بل و يقيسون على غير المسموع من اللغة أصلا.

ثالثا: التعليل:

و أما التعليل فلقد علمنا فيما سبق أن البصريين في تعليلاتهم يصدرون من اللغة ذاتها و يحتجون لآرائهم بما فهموه من دقة الواضع العربي و عبقريته، لكنّ الكوفيين في تعليلاتهم كانوا يقحمون ما لا علاقة له باللغة من فلسفة و منطق و غيرهما.

و لكي لا يبقى ما ذهبنا إليه مجرد افتراضات سنورد و بشكل مختصر أمثلة لما كنا قد أوردناه من اختلاف بين المدرستين فيمايلي:

– استدلّ الدكتور شوقي ضيف على اتساع الكوفيين في السماع بما يعرف بـ (المسألة الزنبورية) و التي جرت بين سيبويه البصري و الكسائي الكوفي... و سيبويه لا يقبل غير ضمير الرفع المنفصل في المقولة: (كنت أظنّ أنّ العقرب أشدّ لسعا من الزنبور فإذا هو هي). و يرفض بالمطلق ضمير النصب المنفصل: (فإذا هو إياها). و السماع يؤيد رأيه و في طليعة السماع القرآن الكريم: قال الله تعالى:﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الأنبياء 97).

و أما الكسائي فيقبل ضمير النصب المنفصل: (فإذا هو إياها). وحجته لغة أعراب الحطمة الذين يصفهم شوقي ضيف بأنهم ليسوا فصحاء و لا سكان بادية في قوله: " لأنهم [يقصد أعراب الحطمة] ليسوا من الفصحاء المتبدّين في قيعان نجد و تهامة و الحجاز ممن يؤخذ عن لسانهم النحو و اللغة "[173]

– الفصل بين المضاف و المضاف إليه:

يذكر أبو البركات الأنباري أن الكوفيين يجيزون الفصل بين المتضايفين، و يذكر احتجاجهم على ذلك بيتا من قول الراجز:

فزججتها بمزجّة .... زجّ القلوصَ أبي مزاده

فالمضاف في البيت هو: زجّ

و المضاف إليه: أبي مزادة

و المفعول به: القلوصَ.

و تقدير الكلام: زجّ أبي مزادةَ القلوصَ.

وأما البصريون فلا يجيزون الفصل بين المضاف و المضاف إليه، و قد وصف صاحب الإنصاف قياس الكوفيين على هذا البيت بأنه قليل و أنه مجهول القائل، ومن هناك لا يحتجّ به، يقول:" و أما الجواب عن كلمات الكوفيين أن ما أنشدوه فهو مع قلته لا يعرف قائله و لا يجوز الاستشهاد به"[174].

وإذا انتقلنا إلى التعليل فإنه عند البصريين مرتبط أساسا باللغة منها يصدر و إليها يعود، و نسوق مثالا على ذلك تعليل المبرّد البصري لورود لفظة (منفطر) بالتذكير خبرا للفظة (السماء) المؤنثة و ذلك في قول الله تعالى: ﴿ السماء منفطر به ﴾. (المزّمل 18) يعلل ذلك برأي أحد أوائل النحاة و كبارهم الخليل بن أحمد الذي يرى أن (منفطر) ليست لفعل الانفطار، إنما هي وصف للحال التي تكون عليها يوم القيامة، و لو كانت للفعل لوافقت الاسم و قيل: السماء منفطرة.يقول المبرّد:" و قال الخليل في قول الله تعالى: (السماء منفطر به) قال هو كقولك للدجاجة (معضل) المعضل التي نشبت بيضتها في جوفها. و لو كانت للفعل لم يكن إلا منفطرة"[175] .

- و أما تعليل الكوفيين فكثيرا ما يوصف بالضعف و الاضطراب و الخروج عن حقيقة اللغة و الجنوح إلى المنطق، ومنه ما يراه الفراء في النون الساكنة التي تليها الباء، فهي عنده نون خفية، و في ذلك خطأ لأنها ميم في مثل: قنبر و عنبر... و نجد أبا سعيد السيرافي يصرح بتخطئة الفراء في المسألة الخامسة من كتابه: (ما ذكره الكوفيون في الإدغام)، و يقول محقق الكتاب: " تمثّل رأي الفراء أن النون الساكنة التي تليها الباء كالعنبر هو نون مخفاة و ردّه السيرافي مبينا أنّ الصحيح هو رأي سيبويه في كونها ميما "[176].

هذا و إنّ اختلاف البصريين و الكوفيين في القراءات القرآنية كثير جدا، نختار منه واحدا يتمثل في قبول الفراء الكوفي ثلاثة أوجه إعرابية في إعراب لفظة(غير) في قول الله تعالى: ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ (الأعراف 59)

غيرُ (بالرفع): نعتا للفظة (إله) باعتبار المحل الإعرابي الذي هو الرفع لأنّ (من) حرف جر زائد نحويا.

غيرِ (بالجر) نعتا للفظة (إله) المجرورة لفظا

غيرَ (بالنصب) بمعنى إلاّ.

لكنّ البصريين يرفضون توجيه النصب إذا لم يتم الكلام، و هنا لم يتم الكلام لأنّ بعد

(غير)ضميرا متصلا مضافا إليه. و في ذلك يقول الدكتور صالح أمين آغا في كتابه: (التوجيه اللغوي للقراءات القرآنية عند الفراء): " وقد أجاز الكسائي نصب غير كما أجازه الكوفيون في كل موضع يحسن فيه (إلا) تمّ الكلام أو لم يتم،و أجاز ما جاءني غيرَك [بالنصب]... و عند البصريين لا تكون (غير) منصوبة إذا لم يتم الكلام... خلافا للكوفيين فإنهم ينصبونها تم الكلام أو لم يتم، و الرفع على اتباع الموضع و الجر للفظ"[177]

الملخص:

أ– اختلاف في التحديدات: (بمعنى أن الاختلاف كان في تعريف الموضوع لا في الموضوع نفسه).

– اختلاف في المصطلح: (بمعنى أن الاختلاف في التسمية العلمية للمفاهيم) ب.

ج) – اختلاف في المنهج: (و هو المتعلق بتباين وجهات النظر في دراسة المواضيع النحوية).

د)– اختلاف في التوجيه النحوي للقراءات القرآنية و الأشعار: (التأويل النحوي).

قائمة المراجع المتعمدة :

1. **الإنصاف في مسائل الخلاف، ج1 .**
2. **الإنصاف في مسائل الخلاف، ج2.**
3. **التوجيه اللغوي للقراءات القرآنية عند الفراء في معاني القرآن، طه صالح أمين آغا، دار المعرفة، بيروت، 1428هـ/ 2007م، ط1.**
4. **كتاب التعريفات، الجرجاني، دار الفكر بيروت، 1425 هـ/ 2005م، ط2، باب الخاء.**
5. **ما ذكره الكوفيون في الإدغام، السيرافي، تح/ صبيح التميمي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د/ط.**
6. **المدارس النحوية، شوقي ضيف.**
7. **المذكر و المؤنث، المبرد، تح/ رمضان عبد التواب و صلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ/1996م، ط2.**
8. **المصباح المنير، كتاب الخاء.**
9. **من إشكالات المصطلح النحوي، سعيد جاسم الزبيدي، سلطنة عمان، مجلة العميد العدد 1و2، رمضان 1433هـ/2012م.**

التهميش :

– المصباح المنير، كتاب الخاء، ص 115[166]

– كتاب التعريفات، الجرجاني، دار الفكر بيروت، 1425 هـ/ 2005م، ط2، باب الخاء، ص 73[167]

– الإنصاف في مسائل الخلاف، ج1 ، ص 08[168]

1 – الإنصاف في مسائل الخلاف، ج1، ص 90

المصدر نفسه، ص 81[170]

[171] – من إشكالات المصطلح النحوي، سعيد جاسم الزبيدي، سلطنة عمان، مجلة العميد العدد 1و 2 ، رمضان 1433هـ/2012م، ص 136

– المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص 167[172]

– المدارس النحوية، ص 160[173]

[174]– الإنصاف في مسائل الخلاف، ج2، ص 355

[175]– المذكر و المؤنث، المبرد، تح/ رمضان عبد التواب و صلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ/1996م، ط2، ص 94

– ما ذكره الكوفيون في الإدغام، السيرافي، تح/ صبيح التميمي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د/ط، ص 46[176]

[177] التوجيه اللغوي للقراءات القرآنية عند الفراء في معاني القرآن، طه صالح أمين آغا، دار المعرفة، بيروت، 1428هـ/ 2007م، ط1، ص 300